مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية

اسم المقال: مملكة يهوذا بين التدمير والسبي في ضوء الرواية التوراتية والرواية البابلية
اسم الكاتب: عصام كامل مخيمر
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/index.php/library/8931
تاريخ الاسترداد: 2026/05/13 03:27 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة – Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة – Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

جامعة الشارقة
ملتقى الحضارات

مجلة جامعة الشارقة

دورية علمية محكمة

للعلوم الإنسانية والاجتماعية

المجلد 14 ، العدد 1
رمضان 1438 هـ / يونيو 2017 م

الترقيم الدولي المعياري للدوريات 1996-2339

مملكة يهوذا بين التدمير والسبي في ضوء الرواية التوراتية والرواية البابلية

عصام كامل مخيمر

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الأزهر (غزة)

غزة - فلسطين

تاريخ الاستلام: 16-03-2016 **تاريخ القبول: 24-11-2016**

ملخص البحث:

تناول البحث الأحداث التي تعرضت لها مملكة يهوذا وما آلت إليه الأمور فيها من تدمير وسبي على يد البابليين، وذلك بالاعتماد على ما ورد في الروايات التوراتية، مقارنة مع ما ورد في الروايات البابلية. وقد اعتمد البحث على منهجين رئيسين هما: المنهج الوصفي التاريخي، والمنهج النقدي.

الكلمات الدالة: التدمير والسبي، مملكة يهوذا، الرواية التوراتية، الرواية البابلية.

مقدمة:

لقد توسعت الدولة البابلية في عهد نبوخذ نصر، وامتدت بشكل كبير حتى وصلت إلى حدود مصر، وكان لهذا التوسع والانتشار نتائج، حيث عظمت مكانة الدولة من الناحية الاقتصادية والعمرانية، حتى أصبحت بابل أعظم ممالك الشرق القديم حينما فرضت سيادتها على العديد من الدول ومنها فلسطين، أيضاً كان لهذا التوسع نتائج أخرى، منها معاداة مصر، وما يسمى مملكة (يهوذا التوراتية).

ويعتبر «نبوخذ نصر الثاني» من أعظم ملوك تلك الدولة، حيث حكمها لمدة (43) عاماً، ما بين عامي 605 و562 ق.م. وفي عهده تم القضاء على مملكة يهوذا، وسبى سكانها إلى بابل، وذلك في حملتين: الأولى في عام 597 ق.م، والثانية: في عام 586 ق.م.

وقد تناولت العديد من الأسفار السبي البابلي لبني إسرائيل، أما التوراة فتعتبر المصدر الوحيد الذي تناول مدة السبي البابلي بإسهاب، ونحن هنا مضطرون للتعامل مع نصوص التوراة نظراً لقلة المصادر القديمة التي تعرضت لهذا الحدث، ولكن سوف نتعامل معها بحذر علمي، لأن التوراة دونت بعد السبي البابلي، واشتملت على الكثير من التناقضات.

وفي سياق ما تقدم، (كما تزعم الروايات التوراتية)، تحاول الدراسة إثبات فرضية رئيسة، مفادها أن مملكة يهوذا لم تكن كياناً مستقلاً ذات سيادة، بل كانت عبارة عن بعض المجموعات البشرية التي لا ترتقي إلى مستوى قبيلة.

هذا وسوف تعتمد الدراسة على منهجين رئيسين هما: المنهج الوصفي التاريخي، والمنهج النقدي.

المحور الأول: يهودا في ظل الحكم الأشوري (خلفية تاريخية)

رغم مشاكل مصر الداخلية خلال فترة الحكم الأشوري لفلسطين والتي تمثلت في الانقسام الداخلي، وسوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية لم يكن في وسعها أن تظل منعزلة طويلاً عما يجرى في الشام الذي قلب فيه الأشوريون موازين القوى رأساً على عقب، فقامت مصر بمساعدة ممالكها الثائرة على اعتبار أن هذه الممالك هي بمنزلة مواقع أمامية لوقف التوسع الأشوري. وعندما انتهى عهد «سرجون الثاني» انفجرت الثورة في بلاد الشام، وامتنعت ممالك «عسقلان» و«عقرون» و«لاخيش» و«لبنه» و«صور» و«صيدا» عن دفع الجزية لأشور، كما تحالف «مردوخ بلادان» ملك بابل مع «حزقيال» ملك يهوذا الذي كان يأمل في أن تستعيد مملكته وضعها المؤثر كما كانت أيام الكاهن «عزرا»، فحاول أن يمد سيطرته على المقاطعات الأشورية، فتطلع إلى عون مصر، وطلب منها

التدخل في شؤون فلسطين لتدعيم الثائرين على الحكم الأشوري؛ فانتهزت مصر الفرصة وحاولت استعادة نفوذها في فلسطين، لذا تجددت العداوة الكامنة بين القوتين (مصر وأشور) في عهد «سنحاريب». (دراز، 2003، ص211 - 212)

وقد تعددت محاولات مملكة يهوذا بالاعتماد على مصر ضد الأشوريين، وهو ما حذر منه النبي إشعيا، ولكن دون جدوى. (إشعيا: 20)

لم يكترث الملك حزقيا لتحذير النبي إشعيا، واتبع سياسة تحد ضد الأشوريين بتشجيع من مصر، وتحالف مع المدن الفلسطينية وغيرها من الدول المجاورة، وقد قام بحفر قناة طولها (1700) قدم في الصخر، ليضمن وصول المياه اللازمة لعاصمته إذا ما حاصرها الأشوريون. (حتي، 1951، ص 216)

نتيجة لذلك، غضب «سنحاريب» (705 - 681 ق.م) الذي خلف سرجون الثاني في الحكم، فصمم عام 701 ق.م. على القيام بحملة قوية على مملكة يهوذا لإخضاعها أو تدميرها والقضاء عليها بشكل كامل، كما فعل أسلافه بمملكة إسرائيل.

إلى ذلك هب حزقيا، وأرسل وفداً إلى مصر مستنجداً بفرعونها، فوعده المصريون بالنجدة. (سوسة، 1978، ص26)، إلاَّ أن النبي إشعيا انتقده على فعلته تلك باعتماده على فرعون مصر بدلاً من اعتماده على الرب، بقوله حسب ما ورد في التوراة: «ويل للذين ينزلون إلى مصر للمعونة، ويستندون على الخيل، ويتوكلون على المركبات لأنها كثيرة، وعلى الفرسان لأنهم أقوياء جداً، ولا ينظرون إلى قدوس إسرائيل، ولا يطلبون الرب». (إشعيا: 1/31)

أما حوليات الملك «سنحاريب»، فقد ذكرت أن الجيش الأشوري سار جنوباً على طول الساحل الفينيقي، وضم سلسلة من المدن تمتد من «صيدا» حتى «عكا»، وهي: «بيت زايت»، و «رربات» (زرباتو)، و «ماعلاب» (ماخليبا)، و «أوشو»، و «اكزيب». وعند «عكا» أشار «سنحاريب» إلى الجزية التي دفعها الملوك الأموريون كدليل على خضوعهم، وهم حكام: «صيدا» و «أرواد» و «جبيل» و «أشدود» و «عمون» و «مؤاب» و «أدوم»، وأسر صدقيا ملك عسقلان ونفاه الى آشور، ثم ذكر سنحاريب بعد ذلك غزوه لبيت داجون ويافا وبن باراك وأزور، وهي مدينة تنتمي لملك صدقيا، ثم تحدث عن أهل عقرون الذين خلعوا ملكهم «بادي» صنيعة الأشوريين، وأرسلوه إلى حزقيال. وبعد الاستيلاء على عقرون أمر بقتل الموظفين والنبلاء الذين اشتركوا في خلع ملكهم، وتعليق جثتهم على الأعمدة حول مدينتهم، واكتفى باعتبار المواطنين العادين أسرى حرب. (دراز، 2003، ص213)

ورغم أن أورشليم لم تسقط بيد سنحاريب، إلاَّ أن الجيش الأشوري دخل البلاد وخاصة مناطق الريف، وعاث فيها خراباً ولم يستطع ملك يهوذا الاحتفاظ بعرشه إلاَّ بعد دفع الجزية، واعترافه بسيادة الآشوريين. (سوسة، 1978، ص26)، كما اضطر لإرسال بناته وغيرهن من نساء القصر والكنوز الثمينة بعد عودة سنحاريب إلى نينوى بالعراق. (حتي، 1951، ص217)

ويبدو أن جل اهتمام الأشوريين كان منصباً على جمع الضرائب دونما التفات نحو الجوانب السياسية أو الإدارية، بحيث لم تطرأ أي تغيرات على الخريطة السياسية الفلسطينية، فضلاً عن ذلك أنهم كقوة برية لم يستغلوا البحر كوسيلة للمواصلات. (المبيض، 1987، ص107). وفيما يلي نص كتابة سنحاريب التي يفاخر بها بأعماله وانتصاراته على يهوذا: أما حزقيا اليهودي فلم يرضخ لسلطتي، فحاصرت 46 مدينة من مدنه المحصنة عدا القرى المجاورة التي لا يحصى عددها، ثم استوليت عليها كلها باستخدام أنواع الآلات الحربية والمنجنيقات، مما ساعدنا على الاقتراب من الأسوار ثم اختراقها، وقد أخذنا منهم (150-200) نسمة: رجالاً ونساءً وأطفالاً وشيوخاً، مع حيواناتهم من الخيول والبغال والحمير والجمال، كبيرة وصغيرة، لا تحصى، وهذه كلها استولينا عليها. هو شخصه (حزقيا) جعلته حبيساً في قصره كالطير في القفص، وأحطته بأكوام من التراب، للتضييق على كل من يحاول الخروج من المدينة. سلمت مدنه التي استوليت عليها إلى (ميتيني) ملك أسدود، و(بادي) ملك عقرون، و(سيلبيل) ملك غزة، وهكذا قلصت حدود بلاده، وفرضت زيادة في الجزية التي عليه أن يدفعها سنوياً. (Leo Oppenheim, A., 1969, p. 288)

وهنا نلاحظ أن كلمة يهودي استعملت لأول مرة في الكتابات الأشورية على لسان سنحاريب، فضلاً عن أن سنحاريب أطلق لقب ملك على حكام تلك الدول ما عدا حزقيا، الذي لم يطلق عليه اسم الملك كما ذكرته التوراة، بل لقب بحزقيا اليهودي، أي: من بيت يهوذا. (سوسة، 1978، ص27 - 28)

وجاء منسي (643 - 687 ق.م) بعد والده حزقيا، وكانت فلسطين تابعه للنفوذ الآشوري، ومن الناحية الدينية فقد تبنى طقوس الاشوريين الوثنية، وترك عبادة يهوه، وجاء بعده ابنه أمون الذي لم يستمر في الحكم سوى عامين، ثم خلفه يوشيا (609-640 ق.م)، في وقت كانت فيه آشور ترنو إلى النهاية. (سليم، 1993، ص346)

انهارت الإمبراطورية الآشورية بتخريب عاصمتها نينوى عام 612 ق.م. (جارودي، 1986، ص138)، وبانهيارها طوي الزمن أخبار المسببين من مملكتي إسرائيل ويهوذا في شمال العراق. كما اقتسم: الماذيون والكلدانيون الممتلكات الآشورية، وقد وقعت حصة

الكلدانيين في سوريا والعراق، فتم تأسيس الدولة البابلية الكلدانية في بابل التي دام حكمها (73) سنة ما بين عامي 612 و539 ق.م. (عثمان، 1994، ص187)

وجه نبوبلاصر اهتمامه إلى سوريا وفلسطين، نظراً لأهمية هذه المنطقة الحيوية بالنسبة لبابل، وليحول دون تدخل الجيش المصري فيها، فقد سبق للفرعون المصري نيخاو الثاني (595-610 ق.م) أنه جاء على رأس جيش إلى سوريا لمساعدة حلفائه الآشوريين، فاستولى عليها ومن ضمنها مملكة يهوذا في عهد ملكها (يوشع)، ثم استولى على كركميش، مسيطراً بذلك على نقطة إستراتيجية كان لا بد للبابليين من أن يؤمنوها، ألاَ وهي طريق نهر الفرات – شريان الدولة البابلية -الأمر الذي هددها تهديداً خطيراً. مما دفع الملك البابلي (نبوبلاصر) إلى الإسراع في إرسال حملة عسكرية كبيرة بقيادة ولى عهده «نبوخذ نصر» لطرد الجيش المصري، وتأمين حدود دولته، فباغته في العام 605 ق.م في كركميش، وأوقع به الهزيمة، وهكذا انفتحت أبواب بلاد الشام وفلسطين أمام نبوخذ نصر. (باقر، 1973، ص546؛ Thompson. R.C, 1965, pp.206-212).

المحور الثاني: مراحل تدمير مملكة يهودا على يد نبوخذ نصر

يعتبر نبوخذ نصر الثاني من أعظم ملوك بابل، حيث حكمها لمدة (43) عاماً، ما بين عامي 605 و562 ق.م. وفي عهده تم القضاء على مملكة يهوذا وسبى سكانها إلى بابل، وذلك في حملتين: الأولى في عام 597 ق.م، والثانية في عام 586 ق.م. (سوسة، 1973، ص313- 314). واستمر حكمه أكثر من أربعين عاماً، ويعتبر المؤسس الحقيقي للدولة البابلية في عصرها الحديث، لأنه أنجز العديد من المهام على الصعيدين العسكري والعمراني.

فبعد استقرار أمور الدولة البابلية لنبوخذ نصر، أخذ بتوطيد أركان دولته على مناطق سوريا القديمة، والممالك المتفرقة في فلسطين. وبالفعل دانت له ممالك دمشق وصور ومؤاب وعسقلان وباقي المدن التي أطلق عليها الأشوريون (بلاد حاتي)، وكان يتلقى الجزية من هذه الممالك. (محمد، 1982، ص62). وكما جاء في النص التوراتي: «ولم يعد أيضاً ملك مصر يخرج من أرضه، لأن ملك بابل أخذ من نهر مصر إلى نهر الفرات، كل ما كان لملك مصر». (الملوك الثاني: 24/7). وأكده النص البابلي: «وفى السنة الثانية وفى شهر آيار (مايو) ملك «أكد» جيشاً قوياً وسار إلى أرض حاتي». (Wiseman, D.,1956, p. 71)

ونستقرى من التعبير الذي استخدم في وصف قوة الجيش وعدده عزم الملك للقيام بعمل حاسم، مما حدا به إلى حمل الأبراج التي كان ينوى استخدامها من دون شك لمحاصرة

إحدى المدن التي أظهرت إمارات العصيان. وعلى الرغم من التلف في بعض الأقسام في النص، والذي يعيق معرفة اسم المدينة المقصودة في حملة هذه السنة، فإن هناك من يعتقد أن يهوذا هي المقصودة، وأن قوة نبوخذ نصر وجيشه أثارت مخاوفها، فقدم حاكمها (يهوياقيم) فروض الطاعة لملك بابل لمدة ثلاث سنوات متتالية (600-603 ق.م). (محمد، 1982، ص64)

فبعد سقوط مملكة إسرائيل، نمت يهوذا، وتطورت إلى دولة كاملة، مع كل مكوناتها الأساسية من وجود كهنة محترفين، وكتاب مدربين قادرين على أن يأخذوا مثل هذه المهمة على عاتقهم. عندما واجهت يهوذا العالم غير الإسرائيلي وحدها، فجأة احتاجت إلى نص تعريفي وتحفيزي، ذلك النص كان اللب التاريخي للكتاب المقدس الذي أعد في أورشليم (القدس) أثناء القرن السابع ق.م. ولأن يهوذا كانت مسقط رأس الكتاب المقدس المركزي لإسرائيل، لم يكن من المستغرب أن نجد نصوصه تؤكد على منزلة يهودا الخاصة مراراً وتكراراً من البدايات ذاتها لتاريخ إسرائيل. (فنكلشتاين؛ سيلبرمان، 2001، ص281)

وتعتبر التوراة من أهم المصادر التي تحدثت عن حملتي نبوخذ نصر على مملكة يهوذا، فقد أشارت إلى أن ملك يهوذا (يهوياقيم) (597-608 ق.م)، تمرد على نبوخذ نصر رغم تحذير النبي (أرمياء) له الذي أظهر طاعته وخضوعه للملك البابلي، معتبراً ذلك طاعة للإرادة الإلهية، فشن نبوخذ نصر سنة 597 ق.م. حملة على يهوياقيم، وحاصر أورشليم –كما زعمت التوراة على أنها عاصمة يهودا -ولكن يهوياقيم توفى أثناء الحصار، فخلفه ابنه (يهوياكين). (سوسة، 1978، ص133؛ جارودي، ص118؛ الملوك الثاني: 6-24/1)

غير أن الملك مات أو قتل، وطرحت جثته خارج أبواب أورشليم. وكان النبي أرميا قد كتب درجاً ضد يهوياقيم، ولكن الملك شقه بمبراة الكاتب وألقاه في النار. (سفر ارميا: 23-36/21)، وقد تنبأ أرميا أن يهوياقيم سيدفن دفن حمار. (سفر ارميا: 19/22)

أما الصراع البابلي المصري فقد كان له آثار بعيدة المدى على السياسة الخارجية لبابل وعلاقاتها مع الدويلات السورية، وعلى أثر هذه الحرب تشجع يهوياقيم حاكم يهوذا لاتخاذ موقف معاد نحو بابل بعد ولائه لها. وربما اعتقد أن الفرصة سانحة له لإعلان استقلاله عن الإمبراطورية البابلية، وليتمتع بحكم مستقل في المدينة دون قيد، أو جزية يقدمها لبابل، إلاَّ أن تصوراته وأماله خابت عندما سارع نبوخذ نصر إلى تسوية الموقف الحرج الذي أحدثه تمرد يهوياقيم. واستناداً إلى إشارة التوراة؛ فإن نبوخذ نصر طلب التحالف مع الأدوميين والموآبيين والعمونيين المستقرين شرق الأردن لتقديم المساعدة له، وذلك بإرسال نجدات عسكرية لتنضم إلى وحدات جيش نبوخذ نصر في مهاجمة يهودا والبقاء فيها حتى يتسنى لملك بابل القدوم بنفسه، وحسم الموقف مع الحاكم اليهوذي المتمرد. (محمد، 1982، ص65)

وهو ما عبر عنه النص البابلي: «في السنة السابعة من شهر كيسليف (تشرين الثاني (نوفمبر)، كانون الأول (ديسمبر))، حشد ملك أكد قواته، وزحف بها إلى بلاد حاتي، وفرض الحصار على مدينة يهودا، وفي اليوم الثاني من شهر آذار (مارس) 597 ق.م) استولى على المدينة وأسر الملك». (Wiseman, D.J, 1956, p.72).

ومما يؤكد ما ورد في العهد القديم من تحالف الأدوميين مع الدولة البابلية في مسعاها العسكري ضد يهوذا، ما ورد في وثيقة باللغة العبرية عثر عليها في أراد، وهي عبارة عن رسالة موجهة من حاكم أورشليم يهودا إلى قائد قلعة أراد يطلب منه أن يقوم فوراً بجمع عدد من الجنود ويرسلهم تحت قيادة الضابط مالكياهو الموجود في الياشا إلى قائد قاعة راموث نقب من أجل أن يوقف زحف الأدوميين إلى القلعة. (Aharoni, T., 1970, p. 120)

وقد اتضح هدف آخر لنبوخذ نصر من كسب الأدوميين إلى جانبه، وذلك لإحكام سيطرته على هذه المنطقة قبل محاصرة أورشليم وإسقاطها. وبذلك غدت راموث نقب منطقة حاجزة بين مصر ويهوذا لقطع أي اتصال أو مساعدة محتملة من مصر، وعزلها تماماً عن المناطق المحيطة بها. (محمد، 1982، ص67 - 68)

ولقد كانت مملكة يهوذا على وشك الانهيار بسبب ضعف يهوياقيم، وانغماسه في الملذات والمفاسد وانتشار فضائحه الأخلاقية المنكرة حتى مع محارمه وسفكه الدماء. (الأحمد، 1979، ص179)

أولاً: التهجير البابلي الأول[1] عام 597 ق.م

بعد وفاة يهوياقيم أثناء الحصار، خلفه ابنه (يهوياكين) الذي اضطر إلى الاستسلام، فقام نبوخذ نصر بسبيه وأفراد أسرته وعددٍ كبيرٍ من بني إسرائيل إلى بابل. (الملوك الثاني: 15/24-16)، ثم أخرج نبوخذ نصر من أورشليم «جميع خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك». (الملوك الثاني: 24/13).

انقسم الرأي بين الأورشليميين، فريق يدعو لمحاربة بابل وملكها «نبوخذ نصر»، وفريق يدعو إلى عبودية بابل، وأهم هؤلاء كان النبي أرميا عميل البابليين في أورشليم –كما

(1) كلمة تهجير تشير إلى حدث التهجير في ذاته بشكل وصفي دون تقييم، كما أنها لا تشير إلى حالة المهجرين العقلية، فكلمة «سبى» أو «نفى» تعنى أن المهجرين كانوا رافضين للاستقرار في بابل، وأنهم مكثوا فيها لأنهم كانوا لا يملكون من أمرهم شيء، وهو الأمر الذي لا تسانده الحقائق التاريخية؛ فكثير منهم رفضوا العودة إلى مقاطعة يهوذا بعد مرسوم قورش الفارسي، وهو ما يسقط عنهم صفة المنفيين المعذبين.
أنظر: (المسيري، 1999، ص308)

يزعم البعض. (الدبش، 2010، ص316)، وسبى نبوخذ نصر قرابة 3000 يهوذي، وأسكنهم منطقة الخابور. (سفر الملوك الثاني: 24/17).

لقد كانت سياسة البابليين تختلف عن الآشوريين في معاملة الأسرى، فكانوا يجمعون الأسرى في نفس المكان، مع السماح بممارسة حياتهم الدينية والاجتماعية، بعكس الآشوريين الذين كانت سياستهم مبنية على تشتيت السبايا في أماكن نائية منعزلة، كي لا يتمكنوا من التجمع في مكان واحد والتكتل فيه على أمل العودة إلى المناطق التي جلبوا منها، فعمل الآشوريون على إبعاد سباياهم إلى المناطق الجبلية المنعزلة في شمالي: العراق وتركيا وإيران ضمن حدود إمبراطوريتهم، ثم أحلوا محلهم شعوباً أخرى من أنحاء الإمبراطورية حتى اختفت أخبار أولئك المسبيين، مما دعا الباحثين إلى تسميتهم (بالأسباط المفقودة). (سوسة، 1978، ص29 - 30)

وبعدما اكتملت عملية السبي الأول، قام نبوخذ نصر بتعيين (صدقيا) عم (يهوياكين) ملكاً على يهوذا. (الملوك الثاني: 17/24)، وأوقفه أمامه وجعله يؤدى يمين الطاعة المطلقة وقسم الولاء التام، متعهداً أنه لن يقدم على أي عمل تآمري، وسيمتنع عن التحالف مع المصريين. (عون، 1969، ص69)، غير أن صدقيا لم يلتزم فيما بعد بقسم الولاء للبابليين؛ ففي عام 594 ق.م، اجتمع في أورشليم جميع سفراء دول مؤاب وأدوم وعمون وصور وصيدا مع صدقيا لحرب بابل. (أرميا: 27/1-8)، ولكن هذا الاجتماع باء بالفشل بسبب قوة بابل العسكرية.

ثانياً: التهجير البابلي الثاني 586 ق.م:

ترك نبوخذ نصر طرفاً من أخباره الحربية منقوشة على الصخور عند نهر كلب[1] (أبو العينين، 1980، ص494 - 495)، وفي عام 586 ق.م عاد على رأس حملة عسكرية كبيرة واحتل أورشليم بعد حصار دام عاماً و نصف، وجاءت هذه الحملة لأن صدقيا الذي عينه نبوخذ نصر ملكاً قد نكث عهده وخلع ولاءه لبابل على أثر غزوة بحرية قام بها الفرعون المصري بسماتيك الثاني لفينيقيا عام 591 ق.م. (مالمات؛ حييم، 2001، ص300)، وانحاز إلى جانب الفرعون المصري (حوفرع ابريز 570-589 ق.م) الذي تولى بعد بسماتيك الثاني، حيث استمال صدقيا وشجعه على العصيان والتمرد الوقوف إلى جانبه، ولا سيما بعد أن لاحظ الفرعون التوسع البابلي الذي بدأ يضر بالمصالح التجارية والاستراتيجية لمصر في موانئ البحر المتوسط. (باقر، 1986، ص548)

(1) سمى نهر الكلب بذلك لوجود صخرة كبيرة بالقرب من مصبه تشبه في شكلها رأس الكلب، وينبع هذا النهر من السفوح الغربية، ويصب في البحر المتوسط قرب قرية جونيه اللبنانية.

ومهما يكن الأمر، فقد قرر الملك نبوخذ نصر تأديب حاكم يهوذا، إلاَّ أن القائد العسكري المصري «حوفرع ابريز» قام باحتلال غزة، وهاجم صيدا وصور عام 589 ق.م، مما شجع صدقيا على الاستمرار في الثورة. (مهران، ص446)، وعلى ما يبدو كان النبي أرميا شاهدا عليه، لذا قام بتحذيره من نتائج هذا العمل، ومن الهلاك الذي سيحل بالمدينة. (سفر ارميا: 1 - 10). وقد عارض النبي حزقيال نقض (صدقيا) للعهد ومحالفة المصريين، وحذره من مغبة هذا العمل. (سفر حزقيال: 21-11/17)

أرسل نبوخذ نصر جيشاً لحصار أورشليم، ولكنه رفع الحصار مؤقتاً عندما اقتربت قوة مصرية بقيادة (حوفرع) ودخلت فلسطين، فظن بنو إسرائيل من سكان يهوذا بأن النصر بات حليفهم. ولكن النبي أرميا قد حذرهم مرة أخرى، مؤكداً بأنهم يخدعون أنفسهم بذلك النصر، لأنه نصر مؤقت فكل من سيبقى في أورشليم سيهلك. أما من أذعن لنبوخذ نصر فسوف يشترى حياته، فوضعوه في السجن. (ارميا: 6-38/2).

وحدث ما تنبأ به أرمياء بالفعل، إذ تمكن البابليون من صد المصريين وإرجاعهم على أعقابهم، ثم أعادوا محاصرة أورشليم من جديد. ولم يمض وقت طويل حتى تفشت المجاعة والوباء في المدينة، مما أضطر سكانها للرضوخ والاستسلام، فدخلت الجيوش البابلية المدينة في اليوم الرابع من شهر تموز (يوليو) عام 586 ق.م، بعدما أحدثوا ثغرات في أسوارها. أما (صدقيا) فاضطر للهرب مع أفراد عائلته، فلحق به البابليون عند سهول أريحا، حيث قبضوا عليه وحملوه إلى (ربلة) مقر نبوخذ نصر العسكري، الذي أمر بقتل أولاده وأشراف يهوذا أمام عينيه، ثم أمر بفقء عينيه، ثم أخذه مكبلاً بالسلاسل مع بقية الأسرى إلى بابل. أما أورشليم: فتم تخريبها وتدميرها وأحرق بيت الرب وبيت الملك وبيوت بقية السكان وسلب الخزائن، ثم نقلها إلى بابل. (سوسة، 1973، ص315؛ حتي، ص220؛ أرميا: 8-39/1؛ رو، 1984، ص506 - 508؛ سليم، 1993، ص334 - 339). ولا تختلف الرواية البابلية عن النص التوراتي الذي ورد فيه:

«وفى السنة التاسعة لملكه «صدقيا» في الشهر العاشر في عاشر الشهر جاء نبوخذ نصر ملك بابل هو وكل جيشه إلى أورشليم ونزل فيها، وبنوا أبراجاً حولها، ودخلت المدينة تحت الحصار إلى السنة الحادية عشرة للملك صدقيا، وفي تاسع الشهر اشتد الجوع في المدينة، ولم يكن خبز لشعب الأرض فثغرت المدينة، وهرب جميع رجال القتال ليلاً من طريق الباب بين السوريين الذين نحَو جهة الملك. وكان الكلدانيون حول المدينة مستديرين، فذهبوا في طريق البرية. فتبعت جيوش الكلدانيين الملك فأدركوه في برية أريحا، وتفرقت جميع جيوشه عنه. فأخذوا الملك وأصعدوه إلى ملك بابل إلى ربلة، وكلموه بالقضاء علية وقتلوا بني صدقيا أمام عينيه، وقلعوا عيني صدقيا وقيدوه بسلسلتين من نحاس، وجاؤوا به إلى بابل. وفى الشهر الخامس في سابع الشهر وهي السنة التاسعة عشرة للملك نبوخذ

نصر ملك بابل، جاء نبوزرادان رئيس الشرط عبد الملك بابل إلى أورشليم وأحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشليم وكل بيوت العظماء أحرقها بالنار. وجميع أسوار أورشليم هدمها كل جيوش الكلدانيين الذين هم مع رئيس الشرط وبقية الجمهور سباهم نبوزرادان رئيس الشرطة، ولكن رئيس الشرط أبقى من مساكين الأرض كرامين وفلاحين. (سفر الملوك الثاني: 13-1/25).

ويتطابق الإصحاح السادس والثلاثين من سفر أخبار الأيام الثاني مع ما ذكره سفر الملوك، غير أنه في النهاية قال إن صدقيا صلب عنقه وقسا قلبه عن الرجوع إلى الرب، وأن جميع رؤساء الكهنة والشعب أكثروا من التعدي حسب جميع رجاسات الأمم ونجسوا بيت الرب، فأرسل إليهم الرب على السنة رسله ينذرهم إشفاقاً على شعبه، فسخروا من رسل الله وازدروا كلامه وهزءوا بأنبيائه، حتى ثار غضب الرب على شعبه، فأصعد عليهم ملك الكلدانيين فقتل مختاريهم في بيت مقدسهم ولم يشفق على فتى أو عذراء ولا شيخ، وأخذ أواني بيت الرب وخزائن بيت الملك ورؤساءه إلى بابل، وأحرقوا بيت الرب وهدموا السور وحرقوا جميع القصور وأتلفوا كل نفيس. والذين نجوا من السيف أجلوا إلى بابل، حيث صاروا عبيداً لملك بابل وبنيه. (دروزة، ص332)

من خلال سفر الملوك الثاني نلاحظ أن هذا السفر بالغ في المدة الزمنية التي حاصر فيها نبوخذ نصر لصدقيا، ونستنتج ذلك من حصار المدينة الذي لم يدم أكثر من شهرين، وهذا الاستنتاج من تاريخ انطلاق الجيش البابلي في شهر تشرين الأول والثاني (أكتوبر ونوفمبر) 598 ق.م، حيث المقدر للجيش البابلي أن يقطع المسافة بين بابل وأورشليم والتي هي حوالي 1600 كم بحدود الشهرين، وذلك على افتراض معدل الحركة اليومية للجيش 30 - 35 كم في أيام الشتاء الممطرة. واستناداً إلى ذلك فلا بد من وصوله إلى المدينة في شهر كانون الثاني (يناير) وضرب الحصار عليها، وهذا يقع على الأرجح قبل أقل من شهرين من تاريخ سقوط المدينة. (محمد، 1982، ص68)

ويأتي بعد سفر أشعيا سفر أرميا أو نبوءة أرميا وهو طويل وإصحاحاته اثنان وخمسون، وقد وصف أرميا في الإصحاح الأول منه أنه من الكهنة، وكانت إليه كلمة الرب في أيام يوشيا بن أمون ملك يهوذا، ثم في أيام يهوياقيم ويهوياكين وصدقيا، وشهد زحف نبوخذ نصر على أورشليم وتدميرها وسبى أهلها. وقد وصف في بعض إصحاحاته بأنه نبي، كما ذكرت بعض إصحاحاته أنه تعرض لغضب الشعب وغضب صدقيا بسبب تنديداته وإنذاراته وتنبؤاته بمصير أورشليم ويهوذا السيء عقوبة على آثامهم، وقد سجنه صدقيا مدة من الزمن. (دروزة، ص241).

وقال أرمياء في تحذيره على لسان الرب: إني أنا صنعت الأرض والإنسان والحيوان الذي على وجه الأرض بقوتي العظيمة وبذراعي الممدودة، وأعطيتها لمن حسن في عيني. والآن قد دفعت كل هذه الأراضي ليد نبوخذ نصر ملك بابل عبدي أعطيته أيضاً حيوان الحقل ليخدمه. فتخدمه من كل الشعوب، وتكون الأمة أو المملكة التي لا تخدم نبوخذ نصر ملك بابل والتي لا تجعل عنقها تحت نير ملك بابل، أني أعاقب تلك الأمة بالسيف والجوع والوباء يقول الرب حتى أفنيها بيده. (ارميا: 8-27/5)

وربما قيل إن أرميا كان خائناً، غير أنه كان يصب نيران غضبه على قومه وحكامهم بسبب انحطاط أخلاقهم وجهلهم في أمور السياسة، وقد دعا قومه إلى التوبة، ورأى أن خضوعهم لحكم الأجنبي إنما كان عقاباً من الإله يهوه على ما ارتكبوه من ذنوب، ويعد أرميا من أفصح أنبياء بني إسرائيل ومدافع عن نبوخذ نصر. (ديورانت، 1971، ص358 - 359).

فمن هذه الأقوال الكتابية النقلية، نرى مقدار العمل الشنيع الذي عمله نبوخذ نصر وجيشه بصدقيا ملك يهوذا، إذ قلعوا عينيه وقتلوا رجاله وأحرقوا أورشليم وهدموا الهيكل وحرقوا الكتب المقدسة، وسلبوا الأواني المقدسة من بيت الرب، فهل بعد هذا يحق أن يقولوا لنا بأن توراتهم سليمة ومحفوظة. (علي، 1999، ص38)

وقدر عدد الأسرى الذين سيقوا من يهوذا إلى بابل ليلتحقوا بإخوانهم من السبي الأول بحوالي (50,000) نسمة، وأولئك مثلهم مثل الذين سباهم الآشوريون من قبل إلى بلاد آشور يتكلمون فيما بينهم باللهجة الآرامية الخاصة بهم. (سوسة، 1978، ص135)، «ولم يبق في المدينة سوى الفقراء الذين ليس لهم شيء، ولكن رئيس الشرط أبقى من مساكين الأرض كراميين وفلاحين». (الملوك الثاني: 12 - 25)، في حين هرب البعض الآخر إلى مصر ونزلوا جزيرة فيلة بالقرب من أسوان وفي شرقي الدلتا. وهكذا أصبحت جميع فلسطين مع سائر بلاد الشام في أيدي البابليين. (عثمان، ص189، إبراهيم، 1990، ص124)

ولكن يوجد شك في هذه الأعداد، حيث اختلفت المصادر حول تقدير أعداد السبي بين أسفار الملوك الثاني وأرميا، ونتيجة للاختلاف بين روايات العهد القديم يبقى هناك شك في هذه الأعداد لأنه لم يؤكدها أي مصدر آخر.

وبتصورنا؛ فإنه بزوال مملكة يهوذا إلى الأبد من الخارطة السياسية لمنطقة الشرق القديم، تحولت إلى ولاية بابلية ومنطقة ريفية. ولمدة ثلاثة قرون تغيب أخبار أورشليم في الظلام ولا يتوفر لدينا أي نص غير توراتي يذكرها، أو يهتم بما كان يجرى في مناطق الهضاب الفلسطينية عامة.

وهكذا تنقل الاكتشافات الأثرية اللحظات المروعة الأخيرة للعنف فقط، لقد تم العثور على علامات تدل على حريق عظيم في كل مكان تقريباً داخل أسوار المدينة، وتشهد الأنصال التي اكتشفت في المعركة الأخيرة للقدس، البيوت الخاصة التي أحرقت بالنيران وانهارت ودفنت كل ما فيها، فخلفت أكواماً مفحمة من الأنقاض التي وقفت شاهداً على عمق وشمول دمار أورشليم (القدس) من قبل البابليين الذين بقوا لمدة قرن ونصف من الزمان. (فنكلشتاين؛ نيل، ص235). وكما جاء في النص التوراتي وصف المشهد: «وخرجت من باب الوادي ليلاً أمام أعين التنين إلى باب الدمن، وصرت أتفرس في أسوار أورشليم المهدمة، وأبوابها التي أكلتها النيران، وعبرت إلى باب العين وإلى بركة الملك ولم يكن مكان لعبور البهيمة التي تحتي». (نحميا: 2/3، 14، 15).

ثالثاً: معاملة البابليين لسكان يهوذا بعد السقوط

لم يهمل نبوخذ نصر أمر المدينة المنكوبة وسكانها دون اتخاذ إجراء مناسب إزاءها، فقد أرسل قائده نبوزيرا دينا وأمره بإحراق المعبد والقصر الملكي، وأن يرحل بني إسرائيل إلى بابل. وقبل رجوع نبوزيرا يدينا وبموافقة نبوخذ نصر نصب جدليا حاكماً على المدينة، وأمره بدفع الجزية للملك. (محمد، 1982، ص74). «أما الشعب الذي بقي في أرض يهوذا (الذين أبقاهم نبوخذ نصر) فوكل عليهم جدليا بن أخيقام بن شافان. (الملوك الثاني: 22/25؛ ارميا: 12-41-40). وكما جاء في التوراة» وأما الشعب الذي بقي في أرض يهوذا الذين أبقاهم نبوخذ نصر فوكل عليهم جدليا بن أخيقام بن شافان. ولما سمع جميع رؤساء الجيوش هم ورجاهم أن ملك بابل قد وكل جدليا أتوا إلى جدليا إلى المصفاة وهم إسماعيل بن نثنيا ويوحنان بن قاريح وسرايا بن تنحومث النطوفاني ويازنيا ابن المعكى هم ورجالهم. وحلف جدليا لهم ولرجالهم وقال لا تخافوا من عبيد الكلدانيين أسكنوا الأرض وتعبدوا لملك بابل فيكون خير. (الملوك الثاني: 25-25/22)

ولكن تعرض جدليا للقتل فيما بعد، فأرسل نبوخذ نصر قائده (نبوزيرايدينا) مرة أخرى ليضرب العمونيين والمؤابيين ويهوذا لمعاقبة قتلة جدليا. (ارميا: 15-41/1)

كما أنه أخرج أرميا من السجن وخيره في الذهاب إلى بابل أو حيثما يشاء، فاختار أرميا البقاء في المدينة، وأوصى ملك بابل به خيراً، ثم قفل قائد نبوخذ نصر راجعاً إلى بابل مع الأسرى والغنائم. (محمد، 1982، ص74)

المحور الثالث: نقد للرواية التوراتية حول تدمير يهوذا

إن مهاجمة نبوخذ نصر لمدينة أورشليم تمت في الوقت الذي كانت فيه تلك المدينة تحت السيطرة الكنعانية الفعلية، وعندما استولى عليها قام بسبي سكانها الكنعانيين لا الإسرائيليين، وهذا يتنافى والرواية التي جاءت في العهد القديم، أما مقر إقامة حاكم يهوذا فكان مكان آخر غير أورشليم. وبالرغم من كل هذا، فقد وعد الرب على لسان النبي أرميا نفسه أنه سيرد سبى كل من شعب مؤاب وشعب عمون آخر الأيام المحددة لسبيهم. (سفر ارميا: 47-48، 6 - 49)

يجب قبل الاستمرار في القصة التوراتية أن نسجل ملاحظة حول التغير ذي المغزى في المصادر التوراتية. فالتاريخ التثنوى، الذي روى تاريخ إسرائيل من نهاية البينة إلى البرية إلى الغزو البابلي لأورشليم (القدس) ينتهي فجأة، وهنا يأخذ زمام القصة مؤلفون آخرون للكتاب المقدس. يروي سفر أرميا حالة يهوذا بعد الدمار، في حين يزودنا سفر حزقيال (الذي كتبه أحد المنفيين) بمعلومات عن حياة وتوقعات المبعدون اليهوذيين في بلاد بابل. أما الأحداث التي وقعت لدى عودة الموجات المتعاقبة من المنفيين في أورشليم؛ فهي مروية في سفري عزرا ونحميا، ومن قبل الأنبياء «حجي» و «زكريا». هنا -أيضا – حانت اللحظة في قصتنا التي يجب أن نغير فيها مصطلحنا: مملكة يهوذا -الاسم الآرامي لتلك المحافظة ضمن الإمبراطورية الفارسية، وشعب يهوذا أي اليهوذيين، سيطلق عليهم من الآن وصاعداً –اليهوديم أو اليهود. (فنكلشتاين؛ نيل، 2001، ص353 - 354)

ويمكن القول بأن هذا المصطلح (اليهود) فيه شيء من التجاوز؛ إذ إن معظم بني إسرائيل كانوا قد فقدوا لغتهم إبان الإقامة في بابل، وبدأت أغلبيتهم تتحدث الآرامية. ولذا فإن كلمة «عبرانية» تشير هنا إلى الانتماء الاثني العام وليس اللغوي. (المسيري، 2001، ص21)

فالسبي باللغة العبرية يسمى «اشفوت»، والسبي في مفهوم العهد القديم هو نقل الشعب المغلوب الذي كان صاحب الأرض إلى مكان آخر، مع ضياع سلطانه السياسي، بل وإحلال أقوام غريبة مكان أصحاب الأرض. وهذا ما حدث في سبى آشور لبنى إسرائيل أي المملكة الشمالية سنة 722 ق.م. (سفر الملوك الثاني: 6 - 17)، وكذلك سبى بابل لليهوذيين أي المملكة الجنوبية سنة 586 ق.م. (سفر الملوك الثاني: 17-24/11)

على أية حال، خلت فلسطين من اليهوذيين بعد سقوط أورشليم في يد نبوخذ نصر، وقد عاشوا في بابل ما يقرب من سبعين سنة. وعندما احتل الملك الفارسي «قورش» ملك الفرس بلاد بابل 538 ق.م، ومن ثم أصبح له السلطان على أرض فلسطين، وأطلق الفرس على بني إسرائيل اسم اليهود، وأطلقوا على عقيدتهم اسم اليهودية، ومن ذلك التاريخ أصبحت كلمة «اليهود» تعنى من اعتنق اليهودية. (شلبي، 1988، ص86)

وبذلك يتضح أن السياسات الاستعمارية المتمثلة في نقل وتهجير السكان لم تتوقف عند انهيار الإمبراطورية الآشورية في الربع الأخير من القرن السابع ق.م؛ فعدد النصوص المتوافرة عن الحملات العسكرية البابلية الجديدة والفارسية ليس أقل بكثير فقط، بل ومختلفاً إلى حد كبير. وإضافة إلى ذلك، فالنزعة الأيديولوجية للنصوص القليلة لدينا، وذات العلاقة بنقل السكان، تجعلها دعائية بشكل واضح؛ فأكثرها أهمية لم يكتب لغايات إدارية أو لكسب دعم الجيش أو تأييد شعب بابل وفارس، بل هو موجه إلى الشعوب المحكومة، وقد كتب لهدف واضح هو تشجيعهم على قبول التغيير الجذري الذي أدى إليه تغير الإمبراطورية، أولاً إلى بابلية، ثم إلى إدارة فارسية. ولما كان البابليون والفرس ورثة إمبراطورية آشورية راسخة، فقد كانت أهدافهم البعيدة المدى ترمي بالتالي إلى إيجاد الولاء والدعم بين المجموعات والشعوب المحكومة في إمبراطوريتهم بدلاً من الفتح؛ لذلك كانت المهمة الدعائية لهذه النصوص مبدئية. (طومسون، 1995، ص236 - 237).

ويؤكد الطبري أن حملة نبوخذ نصر لم تكن خصيصاً لفلسطين، وإنما كانت لإنزال العقاب بملك مصر الذي كان قد رفض إرجاع الفارين من رعيته، فغزا نبوخذ نصر مصر وقتل ملكها، وسبى أهل مصر. (الطبري، 1960، ص539).

ويعتبر تل بيت مرسيم أحد عشرات المدن الصغيرة والكبيرة التي دمرها البابليون في عام 597 و587 ق.م، ولحسن الحظ بقيت الطبقة العليا من تل بيت مرسيم في حالة جيدة. وقد وجدت بيوت تنتمي إلى العقود الأخيرة قبل الغزو البابلي مليئة بالفخار وغير ذلك من الأشياء التي لم ينقل منها إلاَّ القليل قبل أن تأتى النيران على المدينة التي أشعلها المنتصرون. ولما كان جزء كبير من الحجر الجيري قد تكلس من الحريق، كما لم يسكن التل بعد ذلك إطلاقاً، فليس من العجيب إذن، وقد بللت أمطار الشتاء على مدى 2500 سنة كل شيء ترك مكشوفاً، مما كان سبباً في استحالة الحصول على مخلفات أثرية في موقع بيت مرسيم تعود إلى ذلك العصر. وعلى أية حال، فقد أمكن العثور على كمية من الفخار تعود إلى العقدين الأخيرين من ذلك العصر. (أولبرايت، 1988، ص131 - 132). وتأكيداً للوصف الذي تناوله علم الآثار والمكتشفات، يؤكد النص التالي الذي ورد في سفر الملوك الثاني ذلك:» أحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشليم العظماء أحرقها بالنار وجميع أسوار أورشليم مستديراً هدمها كل جيوش الكلدانيين. (الملوك الثاني: 25/10).

ومما يدل على نهاية تاريخ المدينة الإسرائيلية في فلسطين، دمار العديد من المدن الفلسطينية في أوائل القرن السادس قبل الميلاد نتيجة للغزو البابلي، حيث لم تسكن بعد ذلك إطلاقاً. بينما تم تدمير البعض الآخر في نفس الوقت ولم يعد العمار إليها إلاَّ بعد مدة طويلة من الهجر تتميز بتغير ملحوظ في الطبقة الحضارية، وبأدلة تاريخية خارجية تثبت استعمالها لأغراض مدنية. ولا نعرف حالة واحدة كانت فيها المدينة مسكونة بصفة

مستمرة خلال العصر البابلي، سوى بيت إيل التي تقع خارج حدود يهوذا الشمالية مباشرة في مدة ما قبل النفي، حيث لم تدمر في ذلك الوقت بل استمرت آهلة بالسكان حتى الجزء الأخير من القرن السادس قبل الميلاد. (أولبرايت، 1988، ص137).

المحور الرابع: واقع حياة الإسرائيليين المسبيين في بابل:

ولما كانت السياسة البابلية تقوم على مبدأ تغيير التركيبة السكانية للمناطق الخاضعة لهم حتى تضمن عدم تمرد السكان. (عثمان، 1994، ص197)، نلاحظ أن البابليين خلافاً لما قام به الآشوريون من تشتيت الأسرى، بأبعادهم إلى مناطق جبلية نائية منعزلة. جاءوا بسباياهم من أسرى مملكة يهوذا إلى بابل وأسكنوهم في جوار مدنهم وقراهم، مما مكنهم من التجمع في المنفى والاستمرار في ممارسة تقاليدهم وطقوسهم الدينية، وتكوين مجتمع خاص بهم، إضافة إلى اكتسابهم اللغة الكلدانية. كما عامل نبوخذ نصر أسراه من اليهوذيين في بابل أحسن معاملة، وأغدق عليهم بهدف الاستفادة من وجودهم في إعمار بلده، وأقطعهم الأراضي الزراعية الجيدة. (سوسة، 1973، ص135 - 136)

وهكذا يتضح من أساليب آشور وبابل في معالجة الأمم المهزومة عند سبيها أنها ذات شقين؛ أولهما حرمان الأمة المهزومة من قدراتها بنقل الرجال ذوي الكفاءات مرة واحدة وتغيير المفاهيم، ومن ناحية أخرى للاستفادة من ذوي الخبرات المبعدين لصالح إمبراطوريتهم. (عبد العليم؛ راشد، 1995، ص169 - 170)

وكان لهذا اللون من المعاملة أثره ولا شك، مما جعل الأغلبية من اليهوذيين المسبيين تنصرف إلى الحياة الجديدة، واضعة نصب عينيها أن تتكيف مع المجتمع البابلي، فأدى ذلك إلى أن تعود اليهوذيون عادات الكلدانيين، وتخلقوا بأخلاقهم. (آل عمر، 2003، ص45).

ويتضح أن السبي الذي يبكى عليه اليهود كثيراً اليوم ويؤكدون بذلك حقهم في العودة إلى فلسطين لم يكن إلاَّ أسلوباً من أساليب نبوخذ نصر المعتادة، ولم يسلم منه العرب أنفسهم فبعد هذا السبي تفرقت بنو إسرائيل، ونزل بعضهم أرض الحجاز بمدينة يثرب ووادي القرى وغيرها. (الطبري، 1960، ص539)

ولقد أباح نبوخذ نصر لليهوذيين ممارسة ما يشاءون من أعمال اقتصادية واجتماعية في بابل، واعتمد عليهم في أعمال الترجمة والخدمة في القصور الملكية، وحتى في الوظائف العسكرية، وأشركهم في الإشراف على السياسات المالية وإدارة المصارف، ولقد تسللوا إلى مراكز حساسة في بابل، فأصبحوا من العناصر المؤثرة في السياسة البابلية، مما نجم عنه فيما بعد دمار الوضع الاقتصادي لبابل بسبب تحكمهم في السياسات الاقتصادية. (عيسى، 2002، ص210).

ويؤكد ويلز ذلك بقوله: «ذهبوا إلى بابل همجاً وعادوا منها متمدنين، خرجوا جمهوراً مخلطاً منقسماً على نفسه لا يرتبط بوعي ذاتي وطني، وعادوا بروح قومية شديدة وجنوح إلى الاعتزال جعلهم ينأون بجانبهم عمن عداهم، ذهبوا ليس لهم أدب مشترك معروف بينهم، إذ لم يحدث إلاَّ قبل الأسر بأربعين عاماً أن اكتشف الملك يوشع -كما يقال -كتاباً في القانون للمعبد، وفيما عدا ذلك فليست هناك أي إشارة في السجلات إلى تلاوتهم، أو أي كتاب لهم، فلما عادوا من السبي كان معهم القسم الأكبر من العهد القديم. (فتاح، 1997، ص43)

ولم تكن هزيمة سكان يهوذا على أيدي نبوخذ نصر من الأحداث ذات الشأن في التاريخ العالمي، بدليل تجاهل كتابات نبوخذ نصر نفسه لها، والتي لم تذكرها مرة واحدة، أما بالنسبة للإسرائيليين فإنها مثلت لحظة حاسمة لا في تاريخهم فحسب، بل في تاريخهم الديني أيضاً، فالذي اختفى من أورشليم كان مملكة داود التي هي دعامة الوعد في التوراة. (جارودي، 1986، ص138)، كما صورها كتبة التوراة فيما بعد أثناء وجودهم في بابل.

وخلال مدة السبي البابلي أصبح تعصب قادة إسرائيل تعصباً عنصرياً، فتعصبهم الطبقي الذي أشعرهم خلال وجودهم في فلسطين بأنهم متميزون وحاكمون، تحرك في المنفى ليصبح تعصباً عنصرياً ودينياً؛ فالمسبيون لم يكونوا سجناء بالمعنى الحرفي للكلمة، إذ كانت لهم بيوتهم وقراهم، وكان بإمكانهم التنقل بحرية، وباستطاعتهم الزواج وبذلك قال أرمياء: «هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل لكل السبي الذي سبيته من أورشليم إلى بابل قائلاً: ابنوا واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا ثمرها. خذوا نساء ولدوا بنين وخذوا لبنيكم نساء، وأعطوا بناتكم لرجال فليلدن بنين وبنات وأكثروا هناك ولا تقلوا». كما ركز المنفيون على حب أورشليم، وهي محاولة ذكية من كتبة أسفار العهد القديم لجمع قلوب المنفيين حول مدينة مقدسة، يبذلون من أجلها التضحيات في سبيل العودة إليها، وأيضاً على جميع الشعائر الدينية التي يمكن أن تميزهم، وأن تفردهم عن محيطهم الجديد. (جارودي، 1986، ص153 بتصرف؛ ارميا 6-29/4)

وطالت مدة الأسر البابلي ببني إسرائيل إلى ما يقارب (السبعين) عاماً، إذ ورد على لسان أرميا: أن الرب تعهد برد المسبيين بعد انقضاء تلك المدة الزمنية إلى كنعان. (ارميا: 29/10)، وذلك مما ساعدهم على الاختلاط بحضارة جديدة ضيعت ما تبقى من أصالتهم، فصار دينهم غير خاص بهم، نتيجة لغلبة الثقافة الكلدانية عليهم. (سعفان، 1981، ص23). كما أخذ الإسرائيليون يدخلون عالماً جديداً؛ إذ تأثروا بالثقافة والحضارة الشرقية (البابلية)، مما أدى إلى اختفاء تقاليدهم وعاداتهم القديمة تدريجياً. كما عمل الإسرائيليون على تقليد الملوك في حياتهم الخاصة، فنشأت نتيجة لذلك الطبقات في المجتمع الإسرائيلي، كما أخذ الإسرائيليون عن البابليين خلال مدة السبي وبعده العديد من مقومات الحضارة مثل: المقاييس والنقود والتوقيت. (علي، بدون تاريخ، ص70 - 71)

وهذا ما أكده ول ديورانت عن اندماج اليهود في المجتمع البابلي: أنهم تمتعوا بالحرية في عاداتهم وتقاليدهم، وزادت ثرواتهم، وأخذت طائفة منهم تعبد الآلهة البابلية، وتألف الأساليب الشهوانية، حتى إذا كان الجيل الثاني من أبناء المسبيين كانت ذكرى أورشليم محيت من أذهانهم. (ديورانت، 1971، ص362)

لقد عاش اليهوذيون في الجو الباعث على النشاط الذهني في العالم البابلي، فإن العقل اليهوذي ما لبث في أثناء مدة الأسر أن تغير بشكل أكبر. (فتاح، 1997، ص43)؛ ولذلك رفضت الجماعة اليهوذية في بابل العودة إلى فلسطين (فيما عدا قلة صغيرة) بعدما عملوا بالتجارة والربا وانصرفوا عن الزراعة والتركز في المدن، أي أنهم تحولوا بالتدريج إلى جماعة وظيفية وسيطة تجارية ومالية ونسوا اللغة العبرية. (المسيري، 2001، ص24)

ولما أحس الإسرائيليون بالضياع خلال مدة السبي البابلي، وجدوا أنه لا مناص من ضرورة الحفاظ على ما تبقى من كيانهم، فالتف المنفيون حول النبي (حزقيال). (سعفان، 1981، ص23)، يلتمسون فيه العزاء، فقامت نهضة روحية عميقة بعدما انضمت الرواية النبوية إلى السلطة الكهنوتية في جهد دؤوب لوضع صيغ جديدة للرواية القديمة، مما أدى إلى نضوج فكرة الوحدانية. (موسكاتي، ص147 - 153؛ باقر، ص55)

ويعتبر النبي (حزقيال) ممثل الترابط فيما بين مثالية النبوة وتقنين الكهنوت، مما أدى إلى ظهور عدة نتائج طبيعية لأحوال النفي والمنفيين، منها توجيه الكهان اهتمامهم لدراسة الشريعة دراسة منظمة، فتولوا نشر الأسفار المقدسة ثم جمعها وتدوينها فيما بين القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، وقد تم ترتيبها في أقسام كبيرة ثلاثة: التوراة، الأنبياء، الكتابات.

ومما بجدر ذكره، أن جماعة السبي البابلي كانوا يمثلون بقايا جماعة موسى، ثم اختلط بهم من اعتنق اليهودية من مختلف الأجناس، وقد جاءت تسميتهم باليهود نسبة إلى مملكة يهوذا المنقرضة، وقد صارت هذه التسمية تشمل جميع المنتسبين إلى الديانة اليهودية في مختلف أنحاء العالم، وما زالت إلى يومنا هذا تحمل الاسم نفسه. (سوسة، 1973، ص323)، ولقد كان هناك اتجاهان دينيان واضحان بين اليهود في السبي وأثناء الإعداد للعودة: اتجاه له طابع دنيوي، والآخر له طابع كهنوتي؛ فالاتجاه الأول قريب من قبول الأمر الواقع في المنفى، والثاني أكثر تعلقاً بالقومية، وقد تفاعلت اليهودية بين الاتجاهين. (موسكاتي، ص153 - 154)

على الرغم من أن التوراة تعتبر المصدر الوحيد لحملتي نبوخذ نصر، (مع تحفظنا دوماً عما ورد فيها من روايات خاصة بتاريخ بني إسرائيل)، إلاَّ أنه لا يمنع ذلك من القبول بالرواية التوراتية والخاصة بتلك الحملتين ما دامت لا تبالغ في سردها للأحداث، فيما عدا الجزء الخاص بجعل أورشليم عاصمة لمملكة يهودا.

نتائج الدراسة:

بناء على ما سبق: لقد توصل البحث إلى مجموعة من النتائج، وهي:

1. وجه البابليون اهتمامهم الى سوريا وفلسطين نظرا لأهمية هذه المنطقة الحيوية للحيلولة دون تدخل الجيش المصري، وتأمين طريق الفرات – شريان الدولة البابلية.
2. اختلفت السياسة البابلية عن الأشورية في معاملة الأسرى، فكانوا يجمعون الأسرى في نفس المكان، مع السماح لهم بممارسة حياتهم الدينية والاجتماعية، وبذلك خدم البابليون اليهود، ولو بشكل غير مباشر.
3. اختلفت المصادر حول تقدير أعداد السبي بين أسفار الملوك الثاني وأرميا، ونتيجة للاختلاف بين روايات العهد القديم يبقى هناك شك في الأعداد؛ لأنه لم يؤكدها مصدر آخر
4. عاش المسبيون في بابل عيشة الأحرار، ومارسوا حياتهم السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية.
5. رفض المسبيون العودة نتيجة رغد ورفاهية الحياة في بابل في العصر الفارسي.
6. اليهود لعبوا دوراً وظيفياً لخدمة أهداف القوى الكبرى، ولم يشكلوا عاملاً فاعلاً في سياسات المنطقة، بقدر ما كانوا عنصر هدم للكيانات الأخرى الموجودة في الشرق، باستثناء مصالحهم الذاتية المرتكزة على التآمر والدسائس والأكاذيب
7. كان السبي البابلي مصدراً للعديد من الأفكار اليهودية؛ ولذا فإن كثيراً من المفكرين اليهود يرون أن اليهودية بدأت كدين في المهجر البابلي.
8. طور اليهود في بابل البنية الدينية لليهودية، وحرروها من الارتباط بأرض معينة.
9. اقتبست اليهودية الكثير من تراث بابل ونظمها وأساطيرها وعقائدها.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

1. العهد القديم.
2. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، (1960): تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم، ج1، دار المعارف، القاهرة.

ثانيا: المراجع:

3. إبراهيم، معاوية، (1990): فلسطين من أقدم العصور إلى القرن الرابع قبل الميلاد، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، الدراسات التاريخية، ط1، بيروت.
4. الأحمد، سامي سعيد، (1979): تاريخ فلسطين القديم، مركز الدراسات الفلسطينية، بغداد.
5. باقر، طه، (1973): مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ط1، ج1، بغداد.
6. باقر، طه، (1986): مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ط2، ج1، بغداد.
7. دراز، أحمد محمد عبد الحليم، (2003): مصر وفلسطين فيما بين القرنين الحادي عشر والثامن ق.م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
8. دروزة، محمد، (1969): تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، منشورات المكتبة العصرية، بيروت – صيدا.
9. سعفان، كامل، (1981): اليهود تاريخاً وعقيدة، كتاب الهلال، العدد 364، القاهرة.
10. سليم، أحمد أمين، (1993): تاريخ الشرق الأدنى القديم في مصر وسورية القديمة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
11. سوسة، أحمد، (1973): العرب واليهود في التاريخ حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الأثرية، سلسلة الكتب الحديثة، دمشق.
12. سوسة، أحمد، (1978): ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق، مركز الدراسات الفلسطينية، جامعة بغداد، بغداد.
13. شلبي، أحمد، (1988): مقارنة الأديان، اليهودية، ط8، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
14. عبد العليم، مصطفى؛ راشد، سيد فرج، (1995): اليهود في العالم القديم، دار القلم، دمشق.
15. عثمان، أحمد، (1994): تاريخ اليهود، ج1. مكتبة الشروق. القاهرة.
16. على، أحمد، (1999): الأقوال الجليلة في بطلان كتب اليهودية والنصرانية، مطبعة المنار، القاهرة.
17. علي، فؤاد حسنين، (بدون تاريخ): إسرائيل عبر التاريخ، ج1، دار النهضة العربية، القاهرة.
18. العمر، محمد بن علي بن محمد، (2003): عقيدة اليهود في الوعد بفلسطين عرض ونقد، مجلة البيان، الرياض.
19. عون، كمال أحمد، (1969): اليهود من كتابهم المقدس، القاهرة.
20. أبو العينين، حسن، (1980): لبنان دراسة في الجغرافية الطبيعية، دار النهضة العربية، بيروت.
21. عيسى، حسن عبيد، (2002): التآمر اليهودي على بلاد الرافدين حتى سقوط بابل عام 539 ق.م، بغداد.
22. فتاح، عرفان عبد الحميد، (1997): اليهودية عرض خاص والحركات الحديثة في اليهودية، دار عمار، عمان.

23. حتي، فليب، (1951): تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، دار الثقافة، بيروت.
24. المبيض، سليم عرفات، (1987): غزة وقطاعها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
25. محمد، حياة إبراهيم، (1982): نبوخذ نصر الثاني، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.
26. المسيري، عبد الوهاب، (1999): الجماعات اليهودية تواريخ، مجلد 4، دار الشروق، القاهرة.
27. المسيري، عبد الوهاب، (2001): من هو اليهودي ؟!، دار الشروق، القاهرة.
28. مهران، محمد بيومي، (1990): تاريخ العراق القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
29. موجز تاريخ فلسطين من أقدم العصور حتى القرن الحادي والعشرين، تحرير أحمد الدبش، تقديم عبد القادر ياسين، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة، 2010.

ثالثاً: الكتب المترجمة:

أولبرايت، وليم، (1988): آثار فلسطين، ترجمة: زكى إسكندر، د. محمد عبد القادر محمد، مراجعة: سعاد ماهر، ط2، دار الأسوار، عكا.

جارودي، رجاء، (1986): فلسطين أرض الرسالات الإلهية، ترجمة: د. عبد الصبور شاهين، مكتبة دار التراث، القاهرة.

حييم، إبراهام؛ تدمورمالمات، (2001): العبرانيون وبني إسرائيل في العصور القديمة بين الرواية التوراتية والاكتشافات الأثرية، ترجمة رشاد عبد الله الشامي، القاهرة.

ديورانت، ول وايريل، (1971): قصة الحضارة، مج1، 2، ترجمة: زكى نجيب محمود، القاهرة.

رو، جورج، (1984): العراق القديم، ترجمة: حسين علوان حسين، دار الحرية، بغداد.

طومسون، توماس، (1995): التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ترجمة صالح علي سوداح، ط1، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت.

فنكلشتاين، إسرائيل؛ سيلبرمان نيل أشر، (2001): التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها رؤية جديدة لإسرائيل القديمة وأصول نصوصها المقدسة على ضوء اكتشافات علم الآثار، ترجمة سعد رستم، مكتبة صفحات للدراسات والنشر، دمشق.

موسكاتي، سبينو: الحضارات السامية القديمة، ترجمه وزاد عليه: السيد يعقوب، راجعه: محمد القصاص، دار الرقي، بيروت.

رابعاً: المراجع الأجنبية:

Aharoni, T., (1970), "Three Hebrew Ostraca from Arad", BASOR, 197.

Leo Oppenheim, A., (1969), "The Sumerian King List", A.N.E.T. 3.

Thompson, R.C., (1965), "The New Babylonian Empire", In C.A.H, Vol. III. Cambridge.

Wiseman, D., (1956), Chronicles of Chaldean Kings, (626-556 B.C), London.

Translated Romanized Arabic References: **ترجمة مصادر ومراجع اللغة العربية:**

1. The Old Testament.
2. Al-Tabari, Abu Jaafar Muhammad bin Jarir. (1960).History of the Apostles and Kings. Compiled by the Mohammed Abu Al-Fadhl Ibrahim, part 1.Cairo: Al-MaarifPress.
3. Ibrahim, Mu'awiyah. (1990). Palestine from Ancient Times to the 4th Century BC.The Palestinian Encyclopedia, Volume II, Historical Studies.First edition, Beirut.
4. Al-Ahmad, Sami Said. (1979).History of Ancient Palestine.Baghdad: Center for Palestinian Studies.
5. Baqir, Taha. (1973).Introduction to the History of Ancient Civilizations, Volume 1. First edition, Baghdad
6. Baqir, Taha. (1986).Introduction to the History of Ancient Civilizations, Volume 2. First edition, Baghdad
7. Darraz, Ahmed Mohamed Abdel Halim. (2003).Egypt and Palestine between the 11th and 8th centuries BC.Cairo: Egyptian General Book Authority.
8. Drouza, Muhammad. (1969).History of the Children of Israel from their (Sacred) Books. Beirut- Sidon:Modern Press Publications.
9. Sa'fan, Kamel. (1981).History and Doctrine of the Jews.The Book of the Crescent Series, No. 364, Cairo.
10. Salim, Ahmed Amin. (1993). Ancient History of the Near East in Egypt and Primal Syria. Alexandria:Al-Maarifah Al-Jami'iyya Press.
11. Sousa, Ahmed. (1973).Arabs and Jews in History: Historical Facts Revealed by Archaeological Discoveries.Damascus:Modern Book Series.
12. Sousa, Ahmed. (1978). Aspects of the Ancient History of Jews in Iraq. Center for Palestinian Studies.Baghdad:University of Baghdad.
13. Chalabi, Ahmad. (1988). Comparison of Jewish Religions. 8th Edition. Cairo: Egyptian Renaissance Press.
14. Abdel-Alim, Mustafa., Rashed, Sayed Faraj. (1995).Jews in the Ancient World. Damascus: Dar Al-Qalam.
15. Othman, Ahmed. (1994). History of the Jews.Part 1.Cairo:Al-Shorouq Press.

16. Ali, Ahmed. (1999).Solemn Sayings on the Uncertainty of the Books of Judaism and Christianity. Cairo:Al-Manar Press.

17. Ali, Fouad Hassanein. (Undated). Israel throughout History.Volume 1.Cairo:Dar Al-Nahdha Al-Arabiya.

18. Al-Omar, Muhammad bin Ali bin Mohammed. (2003). The Jews' Belief in the Promise of Palestine: Presentation and Criticism. Al Bayan Magazine, Riyadh.

19. Aoun, Kamal Ahmed. (1969).The Jews from their Holy Book. Cairo.

20. Abu Al-Aynain, Hassan. (1980).Lebanon:a Study in Natural Geography.Beirut:Dar Al-Nahdha Al-Arabiya.

21. Issa, Hassan Obaid. (2002). Jewish Conspiracy against Mesopotamia until the fall of Babylon in 539 BC. Baghdad.

22. Fatah, Irfan Abdulhamid. (1997).Judaism: a Special Presentation and Modern Movements in Judaism. Amman: Dar Ammar.

23. Hatti, Philip. (1951).History of Syria, Lebanon and Palestine.Beirut:House of Culture.

24. Al-Mubayyidh, Salim Arafat. (1987). Gaza and its Strip.Cairo: Egyptian General Book Organization.

25. Muhammad, Hayat Ibrahim, (1982).Nebuchadnezzar II. Ministry of Culture and Information, Baghdad.

26. Al-Maseeri, Abdul Wahhab. (1999). Jewish Communities:Histories. Volume 4.Cairo: Dar Al-Shorouq.

27. Al-Maseeri, Abdul Wahhab. (2001). Who is the Jew? Cairo: Dar Al-Shorouq.

28. Mehran, Muhammad Bayoumi, (1990): History of Ancient Iraq.Alexandria:Dar Al-Maarifa Al-Jami'iya.

29. Al-Dabash, Ahmed (Ed.). (2010). Outline of the History of Palestine from the Earliest Ages to the Twenty-First Century. Intro. Abdul Qader Yassin.Cairo:Jazirat Al-Ward Press.

The Kingdom of Judah between Destruction and Captivity in the Light of Biblical and Babylonian Narrations

Esam Kamal Mokhamar

Faculty of Arts and Humanities - Al-Azhar University (Gaza)

Gaza - Palestine

Abstract:

This research dealt with the events that took place in the Kingdom of Judah and resulted in destruction and captivity by the Babylonians. The study was carried out through a comparison between what was mentioned in the Torah accounts and what was mentioned in Babylonian narrations. The research was based two main approaches: the historical descriptive approach and the critical approach.

Keywords: destruction and captivity, Kingdom of Judah, Torah narrative, Babylonian Narrations